الشعر والخمر

قيل لأبى نواس :

– كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر؟

قالَ :

– أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفساً بين الصاحى والسكران صنعت ، وقد داخلنى النشاط وهزتنى الأريحية[١٨]

بهذا طرح أبونواس قضية قديمة قدم الشعر نفسه ، وهى قضية العلاقة بين الشعر والخمر . فما أقدم الأشعار التى تصف الخمر وفعلها فى شاربها ! وما أقدم الروايات التى تروى عن معاقرة الشعراء للخمر ! بل وما أقدم الألفاظ التى سميت بها الخمر فى لغتنا على الأقل ! وما أكثر هذه الألفاظ وتنوعها على نحو ما قرأنا أو سمعنا !

أبو نواس يعترف بفضل الخمر على شاعريته وشعره ، ويمكن أن نستشف من اعترافه ثلاثة معان محددة :

أولاً : هو يربط الخمر بصنع الشعر : أى أن الخمر عنده عادة خلاقة إن صح التعبير ، وأن هذه العادة قد ارتفعت إلى درجة الارتباط الشرطى بلغة بافلوف ، بحيث لا يتم صنع الشعر بدونها .

ثانياً : هو لا يشرب الخمر إلى درجة السكر البين ، ولكنه يحافظ فى شربه على الخط الوهمى الذى يفصل بين حالة الصحو وحالة السكر .

ثالثاً : هو يشعر من خلال محافظته على ذلك الخط بالنشاط يداخله والأريحية تهزه ، وعند ذاك يشرع فى صنع الشعر !

ومهما كان تقبلنا لاعتراف أبى نواس أو ما يحمله من معان فإن المعانى الثلاثة التى سجلناها لا يمكن أن تشكل فى مجموعها قاعدة عامة يتم صنع الشعر بمقتضاها إذا شرب الشاعر خمراً ، وبلغ طيب النفس بين الصاحى والسكران ، فما أكثر الشعراء الذين قد يصنعون شعراً جميلاً

---

(١٨) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الجزء الأول ط١ ، مطبعة حجازى ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص١٨١ .

وعظيماً دون أن يعرفوا لون الخمر !

ولكن اعتراف أبى نواس مازال يثير مسألة تتعلق بجمهور الشعراء الشاربى الخمر أومدمنيها . فإذا كان أبو نواس شاعراً مرتبطاً بالخمر شراباً وباباً من أبواب شعره يسمى « الخمريات » – فإنه لم يكن يبهم فى شعره أو يلغز أو يشطح بخياله على حين أبهم وألغز وشطح شاعر مثل أبى تمام لم يعرف عنه معاقرة الخمر مثلما عرف عن أبى نواس . وربما كان وضوح شعر أبى نواس وصفاؤه نوعاً من الوضوح والصفاء اللذين طولب بهما الشاعر العربى فى العصور الأولى ، وربما كان ذلك أيضاً نوعاً من الارتباط الشرطى بالحالة التى بين الصحو والسكر ، وهى حالة لا تغيب صاحبها عن وعيه !

وإذا كان أبو نواس على هذا النحو فهناك شعراء عرفوا بمعاقرتهم الشديدة للخمر ، وانعكاس هذه المعاقرة الشديدة على شعرهم ومزاجهم ، ومن هؤلاء الشاعر الإنجليزى ديلان توماس المتوفى عام ١٩٥٣ عن ٣٩ عاماً .

وديلان توماس شاعر عظيم باعتراف نقاد شعره ودارسيه منذ ارتبط اسمه بحركة التجديد فى الشعر الإنجليزى الحديث . وفى عام ١٩٦٥ صدر فى لندن كتاب عن حياته بعنوان « حياة ديلان توماس »[١٩] ، ألفه واحد من أصدقائه هو كونستانتين فيتزجيبون ، ونشرته دار دنت . وقد تناول جيبون فى كتابه قضية الخمر والشعر بطريقة غير مباشرة وهو يعرض لحياة توماس .

وديلان توماس كما يظهر فى هذا الكتاب – وكما هى حقيقته – شاعر غريب الأطوار ، أقرب إلى شعرائنا الصعاليك القدامى أمثال عروة بن الورد وسليك بن السلكة وغيرهما ، لكنه يخالفهم فى أنه كان صعلوك مدينة إن صح التعبير ، على حين كانوا هم صعاليك بادية وصحراوات .

عاش توماس حياته القصيرة فى لندن التى وصفها فى شعره بأنها « عقوبة إعدام » . وليست هذه أول مرة يتخذ فيها شاعر مثل هذا الموقف الحاد من عاصمة بلاده . فمن قبله وصف فيكتور هوجو باريس فى روايته « البؤساء » بأنها « لفياتان » ، ذلك الوحش البحرى الرهيب الذى يرمز فى الكتاب المقدس إلى الشر ، ولكنه فى الحقيقة موقف الإنسان الحساس عادة من أية مدينة كبيرة سريعة الإيقاع لاوقت فيها للتأمل أو العلاقات الحميمة .

ولد توماس فى أول أعوام الحرب الأولى لأب قاس انطوائى ، تصور فى شبابه أنه سيكون شاعراً ذا شأن ولكن الزمن خيب أمله فى الشعر ، وعوضه فى ولده عما فاته . أما أمه فكانت امرأة رقيقة الحال لم تدخر وسعاً فى سبيل تدليله وتلبية مطالبه الصغيرة . وقد جاءها ذات يوم بنبأ فرحت به ، ولكنها لم تفهمه تماما . إذ أبلغها أنه « ينوى أن يكون أحسن من كيتس » ، وكان كيتس وقتها

(١٩) Constantin Fitlzgibon, The Life Of Dylan Thomas, Dent, London, 1965.

شاعراً مرموقاً ومؤثراً فيمن يحيطون به . وفى ذلك الوقت فى صباه ، لم يكن توماس يغادر البيت ، وكان دائم الكتابة ، لا يمل سماع أبيه وهو يقرأ عليه شعر شكسبير الذى لم يكن يفهمه ، فكانت النتيجة أن سيطرت عليه فكرة التفرغ للشعر ، ففشل فى دراسته ، وترك المدرسة فى سن السادسة عشرة ، وتصعلك فى الشوارع ، وراح يعيش الشعر قبل أن يكتبه ، وفى الوقت نفسه بدأ يعانى من الفقر والمرض ، ولكنه كان يسخر منهما معاً ، ويُبدى لأصدقائه الاستخفاف الشديد بالدنيا وما فيها .

فى ذلك الوقت حتى سن التاسعة عشرة كتب كثيراً من أجود شعره كما يقول مؤرخ سيرته ، ولكنه كان قد عرف طريق الخمر حتى أدمنها ، وفى سن التاسعة عشرة هجر مسقط رأسه فى سوانى إلى لندن حيث أقام إلى وفاته .

وفى لندن حاول أن يعيش من الكتابة ، ولكن كتابة الشعر لا يمكن أن تكفى حياة إنسان فى مدينة صغيرة ، فما بالنا بلندن . ومن ثمة بدأ فى تجربة موهبته فى النثر والدراما ، وراح يتعاون هو والإذاعةُ البريطانية زمن الحرب الثانية بعد أن أعفى من الخدمة العسكرية لعدم لياقته . ومن الطريف أنه قلق على نفسه قلقاً شديداً يوم طلب للخدمة ، وحاول أن يتهرب ، وكتب إلى صديق له قائلاً : «إنى أحاول أن أجد وظيفة قبل التجنيد الإجبارى ؛ لأن جسدى الوحيد لن أسلمه للجيش ! » وكتب إلى صديق آخر قائلاً : «إن جسدى الضئيل (مع أنه لم يعد ضئيلاً فأنا الآن أشبه بعجل البحر) – لا أنوى فقده من أجل غايات الغير الغامضة ! » .

وفى لندن تزوج توماس آيرلندية أرستوقراطية سليطة اللسان كانت تعتقد أنه عبقرى ، ولكنها كانت تعتقد أيضاً أنه يخون عبقريته بالجرى وراء المواهب الثانوية فى كتابة النصوص السينمائية والإذاعية والقراءات الشعرية فى الندوات . كانت تحبه كشاعر موهوب ، ولكنها كانت تكرهه كممثل محب للظهور والاستعراض . وفى سنيه الأخيرة كانت تقسو عليه دائماً ، وكانت قسوتها تزداد كلما ازدادت مطاردة الضرائب له وكلما ساءت صحته . وكان هو يزيدها اشتعالاً بمداومة الصعلكة والتفكير الدائم فى الموت المبكر : فقد كان شديد الثقة فى أنه سيموت قبل أن يبلغ الأربعين ، قال ذات مرة لإحدى صديقات الأسرة : «أريد أن أذهب إلى جنة عدن ، أن أموت ! أن أكون غائبا عن الوعى إلى الأبد ! أنت تعرفين أننى أعشق ولدى الصغير ولا أستطيع احتمال التفكير فى أننى لن أراه مرة أخرى . . إنه لا يستحق ذلك ، لا يستحق رغبتى فى الموت : إنى حقًّا أريد أن أموت ! » .

ومع الحديث الدائم عن الموت كان توماس يغرق نفسه أكثر فى الشراب – وكان قد أدمن

الخمر تماماً – ويزداد رغبة فى الاستعراض والفرار إلى الحياة العامة والسلوك الشاذ والإيمان بالفكرة الرومانتيكية عن الشاعر باعتباره «روحاً ملعونة» ، بل والإحساس العميق بالذنب .

يروى مؤرخه أنه انقبض واغتم عندما وصلته «بروفات» الطبعة الكاملة لأشعاره وقال فى حزن شديد : «ما أنا إلا حيوان بحرى مطغون ! » ؛ فقد شعر ساعتها بأن الطبعة الكاملة لشعره نذير شؤم ، وأنه لا محالة ملاق حتفه . ولهذا كان دائم الإعجاب بديوانه الناقص «تحت سماء الريف» ، وكان يعتبره أفضل ما كتب .

وبرغم حب توماس للظهور فى المجتمعات فقد كان دائم الخلاف مع أصدقائه ، لا يتيح لهم أى تفاصيل عن حياته ، ويتجنب مواجهتهم ، ويظهر لكل منهم وجهاً مختلفاً عما يظهر لسواه . وفى الوقت نفسه كان قذراً ، كذاباً ، جباناً ، لصًّا ، وزوجاً وأباً سيئاً وغير ذلك من الصفات القبيحة ، كما قال عنه معاصره فيليب تويني ، ولكنه كان أيضاً شاعراً عظيماً ، متوهجاً على الدوام ، لم يكف عن الكتابة حتى موته ؛ كما كان – برغم كل الصفات السابقة – محبوباً ، كريماً ، ساخراً ، مرح الأعطاف . . لقد كان كتلة من التناقض المستحيل !

كان توماس يعتقد أنه عبقرى ، ومع ذلك لم يكن مفكراً ولا مهتماً بالسياسة على عكس ماكان يبديه ، فلم يكن يملك أى وقت للأفكار المجردة أو الفكر المرتب ، لا فى الشعر ولا فى السياسة . وفيهما معاً كانت أفكاره ساذجة برغم توهجها ، أما إدمانه للخمر الذى أتى على البقية الباقية من صحته فقد أثار الكثير من النقاش ، ولا سيما عند ظهور هذه السيرة : فمؤرخه يعتقد أنه كان يشرب لأنه أراد التوافق مع ما فى العالم من سوء وقذارة ! ولكن تويني يرفض هذه الفكرة بدعوى أنها رومانتيكية ، ويصححها بأن توماس كان «ضحية» المجتمع وما فى العالم من مسالك غريبة .

فلم يكن الشراب وحده هو الذى أثر فيه ، ولكن الفقر كان أقوى من الشراب ودافعاً له ؛ فهو الذى «عذبه طوال حياته بحدة ووحشية ولم يتركه إلا جثة هامدة» .

أما حياته البوهيمية فهى من اختياره كما يقول تويني ؛ فهو لم يكن ليكتب لو أنه أثرى أو وجد من يعوله ، ولكنه اضطر إلى دفع الشقاء بالشقاء ! وكان دائماً يحتاج إلى الراحة كما يحتاج إلى إعجاب أصدقائه . وكل هذه كما يقول تويني – فى مقاله الذى نشره فى ذلك الوقت بصحيفة الأوبزرفر – من آثار الإدمان ! فطبيعة الإدمان القاسية تخلق فى ضحيتها كل صنوف الحاجات والمثفرات النفسية وكل صنوف التباهى من أجل التعويض والتصريف التافه للحياة والطاقة .

لقد كان إدمان توماس إذن نوعاً من المرض فى بلد يصل فيه عدد المدمنين على الشراب إلى نحو

المليون . وكثيرون من هؤلاء – بما فيهم توماس – يستمتعون بالشراب حين يشربون . وفى ذلك يقول معاصره الروائى الراحل جويس كارى : إنه – أى توماس – كان يشرب كى يكسر كتل الجليد فى نهر أفكاره المتدفق !

ويروى و . ر . رود جرز فى الملحق الأسبوعى لصحيفة «ذى صنداى تايمز» حواراً دار ذات يوم بين الشاعرين إليوت ولويس ماكينس على النحو التالى :

إليوت : هل كتبت مرة أى شىء وأنت مخمور ؟

ماكنيس : وهل فعلت أنت ؟

إليوت : ذات مرة بعد الانصراف من حفل – ذهبت إلى بيتى وكتبت قصيدة خلتها أحسن ماكتبت .

ماكنيس : ماذا كانت تشبه ؟

إليوت : قرأتها فى الصباح التالى فإذا بها اقتباس خالص !

ويعلق رود جرز بقوله : إن جميع الشعراء يعرفون أن المخمورين لا ينتجون شيئاً ذا قيمة . وقد كان توماس يعرف ذلك أكثر من غيره . وإذا كان مؤرخه قد أوضح أنه لم يكن يخلط بين الشعر والخمر ، مع أنه كان يبدّل كلاً منهما بالآخر بسرعة – فإنه كان يشرب بدافع الخجل والاستعراض والأمل واليأس وأى شىء آخر .

لقد كانت فكرة الموت المقدر سلفاً هى الفكرة التى تجرى فى كل إنتاج توماس كما جرت فى طقوس شبابه ، يقول :

لقد ملأنى الزمن بالخضرة ،
وهأنذا أموت
مع أننى غنيت ،
وأنا مغلول مثل البحر .

وكان جريه وراء الخمر نوعاً من الهروب من هذه الفكرة الداهمة ، ولعلى أعتقد أن توماس كان يفر من شقائه ووساوسه إلى الخمر ، ثم يفر من الخمر إلى الشعر ، فكأن الشعر كان نوعاً من التطهر ، ولكن التطهر نفسه لم يكن ليدوم مع إنسان مثل توماس ، ضعيف مضيع واقع تحت سيطرة «كوابيس» مدمرة .

ومن الثابت أنه لم يكن «يصنع» الشعر وهو مخمور فى الوقت الذى كان يحس فيه بالمتعة إذ يشرب ، ولكنه ربما كان «يصنعه» على طريقة أبى نواس : أى بين الصحو والسكر ، وربما –

أيضا – كان يهيىء نفسه بالخمر لكتابة الشعر ، فتكون الخمر هنا نوعاً من المؤثر الخارجى ، أو مهيئ المزاج للكتابة ، أو المثير لحالة الإبداع .

وعلى هذا النحو من تهيئة الجو المناسب للإبداع نرى العديد من الوسائل التى يلجأ إليها الشعراء والفنانون بوجه عام . وفى تاريخ الشعراء الإنجليز أنفسهم كثيرٌ من الأمثلة . فكولريدج كان يتعاطى الأفيون ، ويعتقد أنه أتاح له عوالم جديدة ؛ ووردزورث كان يفضل الكتابة فى جو الصباح الباكر ، وشيلى كان يحتفظ فى مكتبه بتفاح فاسد يستمد من رائحته التهيؤ للكتابة ! وهكذا .

غير أن الدراسات الحديثة فى هذا الموضوع قد أثبتت أن مظاهر الشذوذ فى إنتاج الشاعر مصدرها طبيعة تكوينه النفسى ومدى عصابيته ، وليس تعاطيه الشراب أو المخدر . ولعلنا إذا طبقنا هذه النتيجة على توماس وجدناها صحيحة ؛ فتكوينه النفسى المرهق بالفقر والوساوس والعصابية كان وراء إبداعه وصوره الشعرية المتوهجة .